ترجمة الصورة الشعرية بين خير اللغات و شر بابل - قصيدة البحيرة للشاعر لامارتين أنموذجا ً-

أ.طارق بن عيسى/أ.عبد الكريم نعماوي

تتنوع أشكال الترجمة بتنوع أشكال النصوص من نصوص إبداعية إلى نصوص أكاديمية و علمية و نحو ذلك.وما من شك أن أشق و أصعب الترجمات هي الترجمات الإبداعية و بخاصة الشعرية، فالشعر يشكل تلك البيئة التي تجمع ثلاثية الخيال الخلاق، العاطفة و الإيقاع فهو المجال الإبداعي في توظيف اللغة أحسن توظيف.غير أن اللغة لئن كانت في حد ذاتها قاصرة عن نقل الأحاسيس و العواطف و الرؤى فلنتخيل كيف تصبح عند انتقال هذه الأخيرة عبر لغتين فالانزياح يحدث في هذه الحالة مرتين في المرة الأولى عند التعبير عن هذه الأحاسيس و العواطف و المرة الثانية عند انتقال هذه اللواعج عبر إنسان قد لا يكون بالضرورة شاعر. تأتي هذه الورقة لتعالج حِزمة من التساؤلات وتبسط أمام الدارس والمحلل مجموعة من الإشكاليات أهمها: ما الصعاب التي تعافسها الترجمات الشعرية؟ وكيف نحاول أن نقترب تقنياً من ترجمة الشعر دونما مساسٍ بالدلالة؟و هل ينبغي على المترجم ترجمت المعنى أم اللفظ ؟مع العلم أن الأخذ بأسبقية الواحد عن الأخر يبطل الترجمة في حد ذاتها. وغيرها هي ما تحاول هذه الورقة إيجاد إجابات لها.

وسنسعى في عرضنا هذا إلى مقاربة هذه القضية عبر الجمع بين النظرية والتطبيق، وسنخصص، في هذا الإطار، الجزء الأول من دراستنا لاستجلاء الرؤية الفكرية أو بالأحرى المواقف الفكرية التي تتحكم في طرح قضية استحالة ترجمة الشعر، بينما سينصب اهتمامنا في الجزء الثاني على متن مختار من النصوص المترجمة، تتمثل تحديدا في مجموعة من نصوص شعرية لترجمة قصيدة (البحيرة) للشاعر الفرنسي ألفونس دو لامارتين (1790-1869م)، ففي العربية لها عديد الترجمات بلغت فيما وصلت إليه ستا، ثلاث شعرا وثلاث نثرا.

يضمر القول باستحالة ترجمة الشعر تصورا عن وضع الترجمة الاعتباري وعن مفاهيم الإبداع والنص، وهو تصور حديث العهد يرتبط بالنظر إلى ترجمة الشعر بوصفها أشد صعوبة وتمنعا من ترجمة النثر. يقول هنري ميشونيك بهذا الصدد: "ليست ترجمة الشعر أصعب من ترجمة النثر. كما أن مفهوم صعوبة الشعر، الذي قد يبدو لنا اليوم كما لو كان أمرا وجد مع القول الشعري نفسه، هو مفهوم ظهر في فترة محددة من تاريخ الأدب. وهو يفضي إلى الخلط بين البيت الشعري والشعر نفسه، كما أنه يرتبط بمفهوم الشعر بوصفة خرقا لمعايير اللغة"[1].

علاوة على ذلك، فإن فكرة الاستحالة هاته، ارتبطت بالتصور الرومانسي عن الشعر وكان أول من قال بها الشاعر الإنجليزي كولريدج في كتابه "البيوغرافيا الأدبية" (1817)، فهي إذن مجرد فكرة عن الشعر ولا تعكس بالضرورة طبيعة الشعر وحقيقته المنفلتة عن التقعيد[2]. ويرى هنري ميشونيك أن التصور القائل بوجود تماه بين الشعر واللغة التي ينظم بها مرده إلى "حركات التخصيص تلك في مستوييها الفردي والقومي التي نجد من بينها تيار فلسفة اللغة عند همبولت.. وهي فكرة لا نجد لها ذكرا في القرون الوسطى أو خلال القرن الثامن عشر، ولم يقل بها لا دانتي ولا أصحاب الموسوعة كديديرو.. بيد أن تطور الشعر الغربي أسهم بقسط وافر في الكشف عن ذاك الخلط الشائع بين الشعر والوزن"[3].

ويمكننا في هذا المستوى أن نعيد طرح هذه القضية انطلاقا من أسئلة التراث الشعري العربي عموما والشعر المغربي المعاصر خصوصا. فالملاحظ أن الجاحظ يقـــــــر باستحالة ترجمة الشعر العربي إلى اللغات الأخرى، يقول بهذا الصدد: " وقد نقلت كتب الهند، وترجمت حكم اليونانية، وحولت آداب الفرس، فبعضها ازداد حسنا، وبعضها ما انتقص شيئا، ولو حولت حكمة العرب، لبطل ذلك المعجز الذي هو الوزن، مع أنهم لو

حولوها لم يجدوا في معانييها شيئا لم تذكره العجم في كتبهم"[4] يرى عبد الوهاب المؤدب أن "هذا التصور الموزع بين شعر لا يقبل الترجمة ونثر وظيفي تعليمي يقبل النقل إلى لغات أخرى- ولكن محفوفا بشعور ارتياب في الترجمة المنذورة للخطأ والهفوات- هو الذي تحكم في تسطير حدود فضاء ثقافي عربي مغلق، فإذا كانت اللغة العربية شكلت لغة المعرفة في فترة معينة من فترات التاريخ الإنساني، فإن نور الأشعار الأجنبية لم يشرق أبدا بألفاظه الوضاءة في الأدب العربي إلا في العصر الحديث، بل حتى الأشعار الغنائية الفارسية الصادرة عن قيم ومعتقدات مشتركة لم تحظ بالترجمة إلى اللغة العربية، ونجد صدى لهذا المنع الذي طال ترجمة الشعر لدى المترجمين اللاتينيين في إسبانيا وصقلية، فهم قد ترجموا عددا كبيرا من المؤلفات العربية إلى اللاتينية وإلى اللغات الأوروبية المختلفة، ولكنهم استبعدوا الشعر من حركة الترجمة هاتـــــــه"[5].

تصبح ترجمة الشعر من العربية إلى اللغات الأخرى أو من هذه اللغات إلى العربية، في سياق المنع المزدوج هذا، فعلا حداثيا يؤسس لعلاقة انفتاح على الآخر، كما أنها تعد فعل تنسيب يطال تصورنا عن ذاتنا وعن لغتنا. فإذا كان المترجم العربي القديم يستنكف من ترجمة شعر الآخرين لاعتقاده أن الشعر العربي يمثل أسمى ما يمكن أن يجود به جني الشعر، فإن المترجم العربي المعاصر ينطلق من تصور يرى أن الشعر العربي يقبل الانفتاح على التجارب الشعرية الكونية في حركة تفاعل طرفاها الأخذ والعطاء.

ولقد أفضى هذا الموقف، في نظرنا، إلى إخصاب التجربة الشعرية العربية بعناصر طعمت القول الشعري العربي بدماء جديدة، ويهمنا في هذا المستوى التطرق أساسا إلى تجربة قصيدة النثر في علاقتها بترجمة الشعر الغربي إلى اللغة العربية. وقد لاحظ الشاعر الفرنسي آراغون أن انتصار الشاعر الإنجليزي كولريدج لفكرة استحالة الشعر تزامن، من باب المفارقة، مع ظهور قصيدة النثر لأول مرة في الأدب الفرنسي بفضل ترجمات الأشعار الرومانسية الإنجليزية إلى اللغة الفرنسية[6]. وهو أمر يبين بطريقة غير مباشرة، العلاقة بين ترجمة الشعر واستنبات قصيدة في تـــــــربة الأدب الـــــــعربي المعاصر، إذ يحق لنا أن نتساءل إلى أي حد عملت ترجمة الشعر على خلق نوع من الألفة بين الملتقى العربي وقصيدة النثر؟

فالملاحظ أن قـــــراء كثيرين يقبلون على قراءة القصائد المترجمة انطلاقا من ميثاق ضمني يجعل الملتقى يقبل بموجبه خلو القصيدة من ضوابط الإيقاع التقليدية، بينما يحاسب بصرامة أكثر قصيدة النثر موقعة باسم شعراء عـــــرب، وقد لا يعترف بوجودها. إنه موقف يعكس العلاقة بين الترجمة والإبداع، لتصبح الترجمة أولى بالقراءة وأكثر مدعاة للثقة، ولكن، أليس مرد ذلك إلى تعطش القارئ العربي إلى الأصوات الشعرية الآتية من أفاق ثقافية متنوعة ومن لغات متعددة؟ ألا ينطوي موقفه ذلك على استنكار مشروع لما ساد المشهد الشعري من استسهال للكتابة الشعرية وتذرع بقصيدة النثر لتدبيج كلام أبعد ما يكون عن الشعر؟

والحال أن إقبال القراء على القصائد الشعرية المترجمة لهو اعتراف ضمني بقدرة بعض المترجمين العرب على الانتقال من ترجمة القصيدة إلى الترجمة القصيدة، ومن الانتقال من ترجمة الشعر نحو الترجمة الشعرية التي هي بالضرورة فعل خلق وإبداع وحوار. وهو تحول يردم الهوة بين النص والترجمة، ويعكس موقفا وسطا بين موقف رومان جاكبسون الحذر المتحرز الذي يرى أن ترجمة الشعر عملية مستحيلة، فلا يبقى للمترجم سوى أن ينجز عملية نقل مبدع[7]، وبين موقف العالم اللغوي "فيتغنشتاين" المطمئن إلى إمكان الترجمة في كل الأحوال وبين مختلف الأجناس، إذ نراه يقر جازما أن "ترجمة لغة إلى أخرى هي مهمة ذات طابع رياضي، كما أن "ترجمة قصيدة غنائية لتشبه تمام إنجاز مسألة رياضية"[8].

نلمس هذا الموقف الوسط المتأرجح بين الحذر والاطمئنان في عديد الترجمات من مترجمي الشعر العربـــي، فمن خلالها نحس أنهم يتمثلون من بعيد فكرة استحالة ترجمة هذا الجنس الفني، فيعبرون عن نوع من التهيب

أمام ترجمة القصيدة، ولكنهم لا يتورعون عن ركوب هذا المركب الوعر، فكأنهم يستحضرون ما ذكره "كلود استيبان" وهو يتحدث عن الترجمة التي أنجزها لأشعار الشاعر الإسباني "كيفيدو"، إذ يقول: "لاينفك غلاة التنظير يختزلون، إن لم ينكروا تماما، منطقة العتمات تلك الغربية المثيرة، حيث يشكل المترجم فضاء اشتغاله اللانهائي... فهل تمكنت من ترجمة كيفيدو؟ ألم أفعل شيئا آخر سوى أنني خنته دون أن أدري؟ كان هدفي أن أجعل أولئك الذين لا يعرفون الإسبانية، يستشفون، ولو للحظة وجيزة، تلك النار التي انطفأت في رماد كلماتي، وإن حاولت جاهدا ألا يخبو شرارها"[9].

ونحن إذ نقرأ الترجمة التي أنجزها بعض المترجمين المغاربة، ونقصد تحديدا في هذا المقام، خالد الريسوني وصلاح الوديع، نحس أن ثمة تكاملا بين استعـــارة النار واستعارة الماء في ترجمتها، ليصبح تعريف الترجمة انطلاقا من منجزهما النصي فعل "ترحيل ينقل الألفاظ، حتى تلك التي تنعت بالشعرية، من ضفة إلى أخرى، وإن أدى ذلك إلى تحطيم قوارب العبور على صخرة دلالاتها الافتراضية المتمنعة على الترجمة. إنها بلغة هنري ميشونيك عملية انتقال إلى الترجمة وقد أصبحت نصا. والترجمة النص لا تقاس بالضرورة بمقارنتها بالأصل، وإنما انطلاقا من ثالوث التاريخ واللغة والثقافة، من هنا يبرز مفهوم ممكن الترجمة الذي يدل على ذاك النص المترجم المتحقق ضمن سياق ثقافي معين[10]، نص لا يسعى إلى المطابقة ولا يتوهم استنفاد دلالات النص ولا يطمح إلى طرح نفسه ترجمة نهائية، إنه ينطلق من كون الترجمة فعل قراءة، ومن ثم يلتمس لنفسه مكانا بوصفه قراءة ممكنة ضمن قراءات أخرى.

فـترجمة "رباعيات الخيام"، فهي متعددة شعرية ونثرية، بتصرف وبدونه، وبلغات متباينة، ولكل ترجمة ما يميزها عن الأخرى لا في اللغات التي ترجمت إليها كالفرنسية والإنجليزية والعربية، بل في اللغة التي تعددت فيها الترجمة من قبل شعراء وأدباء، على نحو ما نجد في الترجمات الإنجليزية، منظومة ومنثورة، كترجمة "فتز جرالد وغارغير ومكارثي وهوينفيلد. ومثل ذلك أيضا ترجمة قصيدة (البحيرة) للشاعر الفرنسي ألفونس دو لامارتين (1790-1869م)، ففي العربية لها عديد الترجمات بلغت فيما وصلت إليه ستا، ثلاث شعرا وثلاث نثرا. ولنقدم مطالعها لنبين مدى التباين في هذه الترجمة المتعددة وهذا بعد أن نسجل الأصل، قال الشاعر لامـــــــــــارتين:

Ainsi, toujours poussés vers de nouveaux rivages, dans la nuit éternelle emportés sans retour, ne pourrons-nous jamais sur l’océan des âges jeter l’ancre un seul jour ?[11]

أولا: ترجمة كلمات الأبيات:

Ainsi	– هكذا، كذا، كذلك على هذا المنوال.
toujours	– بدون انقطاع- وعلى الدوام دائما.
Poussé	– رد- دفع- همز حرك- عجل- أعجل.
Vers	– إلى- جهة- تلقاء.
De	– في- من- منذ.
Nouveaux	– جديد بادع- بديع- حادث- حديث.

Rivages	– طرر- ضفاف- شطوط- شواطىء- سواحل
Dans	– في- بـ.
Nuit	– ليل.
Eternelle	– أزلي- سرمدي- أبدي- ومؤبد- خالدا- دائم.
Emportés	– أجحف- جرف- تجرف- حصل على- كسب- اكتسب.
Sans	– دون- بدون بغير- بلا- حلو- من- من غير.
Retour	– أوب- إياب- رجوع- رجعي- رجعان- عود- عودة- معاد.
Ne	– لا- ما- لم.
Pourrons	– يسعنا- نتمكن- نقوى- نقتدر- نقدر- نطيق- نستطيع.
Nous	– نـ- نـ- نا- إننا- إيانا- نحن.
Jamais	– لا- ما- أصلا- قطعا- مطلقا- أبدا.
Sur	– على- أو فوق.
Océan	– الاقيانس أو الباسفيك- البحر- المحيط.
Ages	– عمر- سنوات- سنون- أسنان.
Jeter	– ألقي.
Ancre	– المرسى- المرساة.
Un Seul	– وحيد- واحد- فريد- وحد- فد- منفرد- فارد- فرد- منجرد.
jour	– نهار- يوم.

ثانيا: ترجمة الأبيات شعرا:

1- ترجمة الدكتور نقولا فايض:[12]

أهكذا أبدا تمضي أمانيــنا * نطوي الحياة وليل الموت يطوينا

تجري بنا سفن الأعمار ماخرة * بحر الوجود ولا نلقي مراسينا

2- ترجمة الدكتور إبراهيم ناجي:[13]

من شاطئ لشواطئ جدد * يرمي بنا ليل من الأبد

ما مر منه مضى فلم يعد * هيهات مرسى يومه لغد

3- ترجمة على محمود طه:[14]

ليت شعري أهكذا نحن نمضي * في عباب إلى شواطئ غمض

ونخوض الزمان في جنح ليل * أبدي يضني النفوس وينضـي

وضفاف الحياة ترمقها العيـ * ـن فبعض يمر في إثر بعض

ودون أن نملك الرجوع إلى ما * فات منها، ولا الرسو بأرض؟

ثالثا: ترجمة الأبيات نثرا:

1- ترجمة الدكتور محمد مندور:[15]

أنظل هكذا منساقين أبدا إلى شواطئ جديدة محمولين دائما وسط الليل الأبدي بغير رجعة؟

أو ما نستطيع أن نلقي بمرساتنا يوما على شاطئ الزمن اللجي؟

2- ترجمة أحمد حسن الزيات:

أهكذا قضى الله أن نمخر في عباب الحياة

مدفـوعيـــن في ظلام الأبــد
مــن شاطـــئ إلـــى شاطـــئ،
دون أن نملك الرجوع إلى ملجأ أو الرسو ذات يوم على مرفأ؟

هذه ترجمات مختلفة لمقطع واحد من قصيدة البحيرة التي ترجمها هؤلاء كاملة وكل ترجمة مائــزة عن الأخرى من حيث الحس والتفكير أو الأسلوب والقدرة على المطابقة وإضفاء الطابع الأصيل الدال على الدراية بالموضوع والإلمام باللغة الناقلة والمنقول إليها، فضلا عن التشبع بروح الثقافتين والحضارتين وتقمص شخصية الشاعر في قصيدته ابتداء من إدراك أبياتها واستخلاص جوهرها وفهم وقائعها بدقة وعمق وذوق، والكشف عما وراء المعاني من ضلال دقيقة، وانتهاء بالسبك الجيد والفصيح لما استقر في نفس المترجم تجاه النص المراد نقله، وعلى هذا تختلف الترجمة باختلاف أصحابها من حيث الروح والدربة والمعرفة والثقافة، ومن ثم تكون "الترجمة مثل الزجاجة، هناك النظيفة التي تختفي عند الرؤيا، وهناك المتسخة التي تحجبها وتغشي النظر وتعيق البصر"[16]. والمبتدئ ليس كالضليع، فلما كان المترجم أقدر كانت ترجمته أرقى لأنه في ترجمته يشعر بقلب المؤلف وينظر بعينيه وينطق بلسانه ويلتزم بطابع نصه ويفرغ روحه وشعوره بما يلائم الألفاظ والنسق والمجاز. قال جاكسون ماتيوز:

هناك مسألة تبدو واضحة: ألا وهي ترجمة قصيدة شعرية ما هي في الواقع عبارة عن تأليف قصيدة أخرى. والترجمة الكاملة للفحوى أمينة، تقارب الأصل شكلا كما أنها تكون لها روح خاصة بها يتقمصها المترجم[17].

ويقول ج.ب فيلبس: "الترجمة الحقة هي التي لا تبدو بأنها ترجمة"[18]ويقول أ.سوتر: إن مثلنا الأعلى في الترجمة هو أن نحدث في ذهن القارئ أثارا تقارب قدر الإمكان الآثار التي يحدثها النص الاصلي عند قراءتـــــــــه[19].

وتأسيساً على ما قدمنا نخلص إلى أن ترجمة الشعـــــر شبيهة باستنساخ عينات شعرية تحمل نفس الجينات التى تُكون النص عند الاخر، و لكن بتقديمها في شكل يتناسب و جمالية اللسان المنقول إليها و بهذا استمتع العرب برباعيات الخيام، و استفاد فن الطرابادور في اسبانيا من الموشحات الـــــــــعربية.

مصادر و مراجع البحث:

[1]Henri meshonnic, pour la poétique, coll. Le chemin, Gallimard, 1973, p.313.
[2]انظر ص 351 من كتاب هنري ميشونيك السالف الذكر.
[3]Ibid, p. 351
[4]عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجبل، ج1، ص75، 1996م.
[5]In Actes des troisièmes assises de la traduction littéraire (Arles 1986), modes de pensée, modes d'expression, table ronde, Actes sud, p. 67, 1987.
[6]عن هنري ميشونيك، نفسه، ص351.
[7]Jakobson roman, Essais de linguistique générale, Ed de Minuit, 1966, p.86.
[8]Actes des troisièmes assais de la traduction littéraire Op, cit,. p.31.
[9]Ibid.p. 28-29.
[10]Ibid., p. 69.
[11]Les plus belles poésies françaises, p5, p67-6.
[12] نقولا فايض، ديوان رفيق الاقحوان ،دار مناهج القراءة و الادب ، 3 /176.
[13]شعر ابراهيم ناجي ، الاعمال الكاملة ، دار الشروق ط3 ، 1988/1408م ، ص119.
[14]علي محمود طه، ديوان الشوق العائد، دار نهضة **مصر** للطباعة **والنشر** والتوزيع، 1945.
[15] الدكتور محمد مندور،فن الشعر، دار القلم ، ص47.
[16] محمد ديداوي،علم الترجمة بين النظرية و التطبيق ، ص163.
[17]نفسه ، ص15.
[18]نفسه ، ص16.
[18]نفسهما.
[19] عبد الواحد وافي،فقه اللغة،نفسه ، ص130